آثار العنف وإساءة معاملة الأطفال على الشخصية المستقبلية

آثار العنف وإساءة معاملة الأطفال على الشخصية المستقبلية

أ. مها حسنين سليمان

مقدمة

بدأ الاهتمام بالطفل فى مطلع العشرينيات من القرن الماضى بظهور قوانين لحماية الطفل حيث صدر أول إعلان لحقوق الطفل فى عام ١٩٢٣، وتبلور عنه إعلان جنيف لحقوق الطفل فى عام ١٩٢٤، ثم اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة فى عام ١٩٥٩ إعلانًا عالميًا لحقوق الطفل، وتلى ذلك إعلان عام ١٩٧٩ سنة دولية للطفل، وفى عام ١٩٨٩ صدرت اتفاقية حقوق الطفل التى تعهدت بحماية وتعزيز حقوق الطفل ودعم نموه ونمائه ومناهضة كافة أشكال ومستويات العنف الذى قد يوجه ضده، وتضمنت المادة (١٩) من الاتفاقية حماية الطفل من كافة أشكال العنف والإيذاء البدنى والعقلى والاستغلال الجنسى وغيره، ووجوب اتخاذ الدولة الإجراءات الكفيلة بمنع ذلك، بما فيها تدخل القضاء .وألقت ظاهرة سوء معاملة الأطفال وإهمالهم اهتمامًا مجتمعيًا متزايداً خاصةً فى العقود الثلاثة الماضية، وخاصة بعد إقرار اتفاقية حقوق الطفل وإقرار هذه الحقوق فى وثائق دولية وتشريعات قانونية، ومن معالم هذا الاهتمام المتزايد خصصت الرابطة الأمريكية لعلم النفس فى مؤتمرها السنوى الذى عقد فى آب من عام ٢٠٠١ فى سان فرانسيسكو ٣٠ جلسة عن ظاهرة سوء معاملة الأطفال child abuse ، وتراوحت ما بين (جلسات بحوث، وحلقات نقاشية، وورش عمل، وتدريب التعليم المستمر للاختصاصيين والعاملين فى هذا المجال والمهتمين به.

لاتعتبر ظاهرة إساءة معاملة الأطفال ظاهرة حديثة فى المجتمعات، بل كانت موجودة منذ القدم، وتعد إساءة معاملة الأطفال من الظواهر التى انتشرت فى الآونة الأخيرة، بل تتزايد يومًا بعد يوم، وقد تأخذ الإساءة ضد الأطفال أشكالاً متعددة قد يكون عقابًا بدنيًا يستهدف جسد الطفل كالضرب والإيذاء، وقد يكون نفسيًا يهدد أمن الطفل النفسى، وقد يكون معنويًا ينتهك كرامة

وإنسانية الأطفال، وقد يكون اعتداء على أمنه وحقوقه ومتطلباته. وتعد إساءة معاملة الأطفال السبب الأكثر شيوعًا فى وفاتهم، وخاصةً فى السنوات الخمس الأولى من حياتهم ويرجع السبب إلى لجوء الوالدين إلى استغلال الطفل، واستخدام العقاب البدنى معه لإجباره على القيام بأنشطة مثل التسول فى الشوارع، وسوء استغلاله فى العمل، والإساءة الجنسية، والإهمال الأسرى، والحرمان من الدفء العاطفى، وهذه الأسباب مجتمعة تقود إلى ظهور الأعراض الاكتئابية، واضطرابات النوم، وانخفاض تقدير الذات والمخاوف، والسلوك العدوانى، والعناد والتمرد، والتبول اللا إرادى والضغوط التالية للصدمة.

وتؤكد منظمة اليونسيف للأطفال أن إساءة معاملة الأطفال تقع تحت ما يسمى "الأطفال فى الظروف الصعبة" وهى ترى أن هؤلاء الأطفال يتعرضون لظروف تضرهم صحيًا وجسديًا ونفسيًا وتعوق نموهم الطبيعى، وهذه الظروف هى عمالة الأطفال، والأطفال المشردين، والإهمال، والتحرش الجنسى، ودخول الأطفال فى صراعات مسلحة أو كوارث.

والأسرة هى النواة الأساسية لكل المجتمعات الإنسانية وهى الوسط الرئيس الذى من خلاله تتم عملية التنشئة والتطبيع الاجتماعى. وعند تقييم مشكلات الأطفال فإن الخلفية الأسرية للطفل هى المجال الأول الذى ينبغى النظر إليه وتقويمه. وقد أيدت البحوث ذلك وأوضحت عمليًا أن أى بعد من أبعاد مشكلات الأطفال يرتبط ارتباطًا بالدرجة الأولى بالصعوبات الموجودة داخل الأسرة، فلا شك أن القسوة والتربية الصارمة تؤدى إلى خلق ضمير أرعن وتولد الكراهية للسلطة وكل ما يمثلها، وتجعل الطفل يقف من المجتمع عامّة موقفًا عدائيًا، أو يستسلم أو يرى الخلاص فى تملق الكبار أو الخضوع لهم، وتميت فى نفسه الثقة بالنفس، وتقتل روح المبادأة وتجعله يتحاشى القيام بأى عمل يدافع به عن نفسه. والإكثار من التخويف له آثاره النفسية الخطيرة، وقد ينعكس المكبوت فى سن مبكرة على حياة الطفل، فعندما يكبر يخشى الناس أو لا يرضى أبدًا عن عمل يعمله ويصبح دائم القلق.

مفهوم الإهمال وسوء المعاملة

شهد تعريف سوء معاملة الطفل تطورًا ملحوظًا فى العقود الماضية، فمن المفاهيم الكلاسيكية التى طرحت عن هذه الظاهرة ما قدمه كمب و آخرون عن متلازمة ضرب الطفل
battered child syndrome وتصف هذه المتلازمة سوء معاملة الطفل على أنها إيقاع الأذى أو إصابات خطرة بالأطفال الصغار بواسطة الوالدين أو مقدمى الرعاية، وغالبًا ما ينتج عن الإصابات التى تشمل كسورًا وتجمعات دموية بالدماغ وإصابات متعددة فى الأنسجة الرخوة وعجز مستديم وحدوث وفاة. إن مفهوم سوء المعاملة والإهمال للأطفال قد يتسع ليتضمن ظواهر وحالات عديدة من سوء المعاملة للأطفال ومن الأساليب الخاطئة في تنشئتهم، بل قد يمتد أيضًا ليشمل صدمات الطفولة أو الأطفال المصدومين نتيجة للخبرات المؤلمة أو الصدمية التى تعرضوا لها، وهى خبرات تعطل أو تعوق ارتقائهم النفسى، ولا شك أن تعرض الأطفال لخبرات سوء المعاملة والإهمال يشكل فى حد ذاته (صدمة) للطفل، وصدمة الإساءة لها من التبعات والعواقب والمظاهر التى تؤثر على الصحة النفسية للفرد.

حجم ظاهرة العنف والإساءة ضد الأطفال

يعتبر الأطفال هم أكبر ضحايا العنف ، ومن الصعوبة بمكان تحديد عدد الأطفال الذين تعرضوا للإساءة أو العنف، إلا أن المدير الإقليمي للشرق الأوسط بمنظمة الصحة العالمية أشار إلى أن استخدام العنف ضد الأطفال يمثل كارثة ومأساة حقيقية لطبيعتهم الرقيقة وضعفهم فى المقاومة، غير أنه وراء إصابة (٨٠) مليون طفل دون الخامسة عشرة من العمر بالإدمان من مجموع أطفال العالم. وكشفت الدراسة الوطنية لمعدلات حالات سوء المعاملة والإهمال للأطفال التى صدرت عام ١٩٩٦ أن عدد الأطفال الذين يتعرضون لسوء المعاملة قد ارتفع إلى ٢.٨ مليون فى الولايات المتحدة الأمريكية، وتشير الإحصاءات فى الأردن إلى أن عدد الاعتداءات على الأطفال وصل فى عام ١٩٩٥ إلى ١٧١١٥ حالة، وتشير بعض البحوث إلى أن سوء معاملة الأطفال يحدث فى كل المستويات الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية، وتبين أن ٨٠% إلى ٩٠% من الحالات يكون الشخص المسيء أو المنتهك من الذكور وغالبًا ما يكون قريبًا أو صديقًا للأسرة. إصابة (٨٠) مليون طفل دون الخامسة عشرة من العمر بالإدمان من مجموع أطفال العالم، وكشفت الدراسة الوطنية لمعدلات حالات سوء المعاملة والإهمال للأطفال التى صدرت عام ١٩٩٦ أن عدد الأطفال الذين يتعرضون لسوء المعاملة قد ارتفع إلى ٢.٨ مليون فى الولايات المتحدة الأمريكية، وتشير الإحصائيات فى الأردن إلى أن عدد الاعتداءات على الأطفال وصل فى عام ١٩٩٥ إلى ١٧١١٥ حالة، وتشير بعض البحوث إلى أن سوء معاملة الأطفال يحدث فى كل المستويات الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية وتبين أن ٨٠% إلى ٩٠% من الحالات يكون الشخص المسيء أو المنتهك من الذكور وغالباً ما يكون قريبًا أو صديقا للأسرة.

وفى تقرير صدر عن مركز الأرض لحقوق الإنسان فى القاهرة أخيرًا أكد أن العنف ضد الأطفال أصبح أكثر من مجرد مجموعة جرائم زادت هنا أو هناك ضد أطفال مصر، بل أصبح ظاهرة فى المجتمع، وتشير التقديرات إلى أن ١٣,٤ مليون طفل يمارسون عملاً ما ويمارس عدد كبير من هؤلاء أعمالاً تشكل خطورة على حياتهم ونموهم ومعنوياتهم، وهناك أطفال آخرون ينشأون فى حالة من الحرمان أو من يعيشون فى الشوارع، وقد تحول بعضهم لأحداث منحرفين يعيشون دون أى نوع من الرعاية كما يواجهون باستمرار العنف العائلى وسوء المعاملة. ومن الملاحظ أن العنف الذى استهدف الأطفال منها على سبيل المثال الأطفال العاملون، والأحداث، والأطفال المعرضون للخطر، وختان الإناث، وأمية الفتيات وأطفال الشوارع، وهو ما يسمى بالعنف غير المباشر فهل هذا هو وضع الطفولة الآن فى مصر باعتبار الأطفال هم جيل المستقبل وتقدم المجتمع؟!

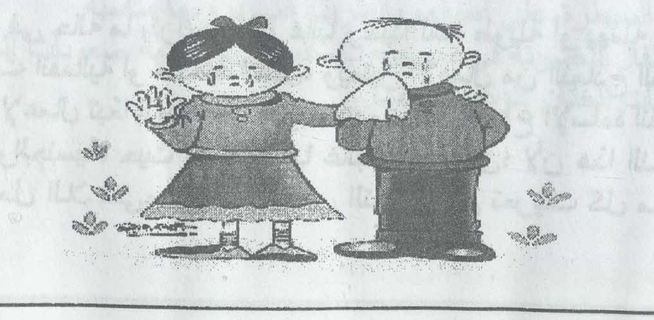

أنماط إساءة المعاملة للطفل

هناك أنماط عديدة لإساءة المعاملة للطفل والعنف ضده وهى ما يأتى :

١- **الإساءة الجسدية :** وهى أية إصابة للطفل لا تكون ناتجة عن حادث، وقد تتضمن الإصابة كدمات أو خدوش أو آثار ضربات أو لكمات بالجسم، أو الخنق والعض والدهس والمسك بعنف، وشد الشعر والقرص والبصق، أو كسور فى العظام، أو الحرق، أو إصابة داخلية ،أو حتى الإصابة المفضية إلى الموت.

٢-**الإساءة الجنسية :** وهى حالة ما يعمد شخص أكبر إلى استخدام الطفل لأجل أغراض جنسية مثل : الاغتصاب والتحرش الجسدى والجنسى فى الشوارع والمواصلات والأماكن المزدحمة، والتحرش من قبل أرباب العمل، أو من خلال إجبار الأطفال على ممارسات جنسية.

٣-**الإساءة الانفعالية:** من صور الإيذاء النفسى الآتى.

-**الإزدراء :** وهو نوع من التصرف يجمع بين الرفض والذل، فمثلا يرفض أحد الوالدين مساعدة الطفل ويرفض الطفل نفسه، وقد ينادى الطفل بأسماء تحط من قدره ووصفه بأنه وضيع.

-**الإرهاب :** ويتمثل فى التهديد والإيذاء الجسدى للطفل أو التخلى عنه إذا لم يسلك سلوكًا معينًا، أو بتعريض الطفل للعنف أو التهديد من قبل أشخاص يحبهم، أو تركه بمفرده فى حجرة مظلمة.

-**العزلة :** وهى عزل الطفل عمن يحبهم، أو أن يترك بمفرده لفترات طويلة، وربما يمنع من التفاعل مع الزملاء أو الكبار داخل وخارج العائلة.

-**الاستغلال والفساد :** ويتضمن تشجيع الطفل على الانحراف مثل، تعليمه سلوكًا إجراميًا ، أو تركه مع خادم، أو تشجيعه على الهروب من المدرسة أو الاشتراك فى أعمال جنسية.

-**إهمال لردود الأفعال العاطفية :** ويتضمن إهمالاً لمحاولات الطفل التفاعل مع الكبار مثل، اللمس والكلام والقبلة، والوالدان هنا يشعران الطفل أنه غير مرغوب فيه عاطفيًا.

٤-**الإساءة الصحية :** ويتمثل فى معاناة الطفل من الجوع، والبنية الهزيلة، والتقمل، والملابس غير المناسبة، ويشعر الطفل نتيجة لذلك بعدم وجود أحد يرعاه.

٥-**الإهمال :** وهو فى حالة ما يترك الطفل غالبًا وحيدًا لمدة طويلة أو يهمله الوالدان؛ مما يتسبب فى حدوث مشكلات انفعالية أو صحية للطفل، ويعتبر الإهمال من النماذج الشائعة لإساءة معاملة الأطفال، ويعتبر الإهمال تبعًا للعديد من الدراسات من أكثر أنواع الإساءة انتشارًا مقارنة بإساءة المعاملة الجسدية والجنسية، حيث إن الضحايا غالبًا مجهولون؛ لأن هذا النوع من الإساءة هو الإغفال أى هو فعل اللا شىء، ويوجد بعض التداخل فى تعريف كل من الإهمال وإساءة

معاملة الأطفال العاطفية، وبكل الأحوال الإهمال هو شكل من أشكال الفشل فى تأمين حاجات الطفل الأساسية، والتصرف الوحيد للإهمال لا يعتبر إساءة معاملة للطفل، ولكن التكرار هو بدون شك إساءة معاملة.

أنواع الإهمال : يوجد ثلاثة أنواع للإهمال، هى :

الإهمال الجسدي : الفشل فى تأمين الطعام، واللباس الملائم للحالة الجوية، والإشراف، والمسكن الصحى والأمن، والرعاية الصحية بوصفها حاجة.

الإهمال التعليمى : الفشل فى إدراج الطفل فى المدرسة عندما يصبح فى سن المدرسة، ويتضمن أيضًا الغياب المستمر عن المدرسة.

الإهمال العاطفى : الفشل فى تأمين الدعم العاطفى، والحب والحنان، وهذا يتضمن أيضًا إهمال حاجات الطفل العاطفية، والفشل فى تأمين الرعاية النفسية بوصفها حاجة.

علامات الإهمال :

ملابس غير ملائمة للطقس، وأن يكون متسخًا، والجوع الشديد، ونقص واضح فى الإشراف.

أسباب إساءة معاملة الأطفال

يوجد العديد من العوامل فى حياة الأفراد التى تدفعهم لإساءة معاملة الأطفال، منها :

١- الضغط : يتضمن الضغط الناجم عن رعاية الأطفال بشكل عام، أو رعاية الأطفال المعاقين أو ذوى الاحتياجات الخاصة، أو الأطفال الذين يعانون من صعوبات سلوكية.
٢- صعوبة ضبط الغضب.
٣- العزلة عن العائلة أو المجتمع.
٤- مشاكل صحية عقلية أو جسدية، مثل القلق والاكتئاب.
٥- الإدمان على الكحول والمخدرات.
٦- المشاكل الشخصية، وخلافات زوجية، والبطالة، والمشاكل المالية.

وعلى سبيل المثال هذه بعض المعتقدات التى تقود إلى سوء معاملة الأطفال :

- الأطفال ملكية خاصة.
- للآباء حق السيطرة على أطفالهم بالطريقة التى يرونها مناسبة.
- يحتاج الأطفال للخشونة فى المعاملة ليتمكنوا من مواجهة صعوبات الحياة.
- تحتاج الفتيات للختان لتؤكد عذريتها.

نتائج إساءة معاملة الأطفال:

تشير الدراسات والأبحاث العلمية إلى أن العقاب البدنى الذى يناله الأطفال فى سن مبكرة له علاقة بنزعات العنف فى الرشد، وكأن العنف رد فعل على ما ناله الأطفال من آبائهم فى الصغر. وكذلك أظهرت الدراسات أن الإساءة تولد الإساءة أو العنف يولد العنف، وأن الطفل الذى يعامل بوحشية وعنف فى طفولته يسعى للانتقام فى الكبر لارتكاب جرائم عنف.

فإساءة معاملة الطفل ذات آثار خطيرة، وذلك ليس فقط خلال الطفولة، وإنما تستمر حتى الرشد. ولها تأثيرات متنوعة، وذلك تبعًا لحدة الإساءة والبيئة المحيطة بالطفل، فإذا كانت الأسرة أو البيئة المدرسية صحية وداعمة ستزود الطفل بالضرورة بحصيلة سليمة.

وبالمقابل أثبت علماء النفس أن الخبرات المؤلمة فى الطفولة تكتسب مواقف يدرك فيها الطفل عدم تقبله؛ مما يشعره بعدم الطمأنينة والتعاسة، وكلها خبرات تنمى فيه الاستعداد للقلق وتكوين المفهوم السلبى عن الذات، وكل هذا ينجم عن إساءة معاملة الطفل منذ نشأته، وبالتالى يؤثر على توافقه النفسى والاجتماعى فى مراحل حياته المختلفة. فإساءة معاملة الأطفال هى عبارة عن حلقة تتكرر جيل بعد جيل، فالطفل الذي اختبر صدمة إساءة المعاملة يمكنه تكرار النموذج فى الرشد، وبذلك ينقل إساءة المعاملة للجيل القادم.

الخصائص النفسية للأطفال الذين تعرضوا للإساءة من قبل القائمين بالرعاية، وهى كما يلى :

نقص القابلية للاستمتاع بالحياة، وبعض الأعراض الأخرى مثل التبول اللاإرادى، وثورات الغضب، وعدم الاستقرار وزيادة الحركة، وانخفاض تقدير الذات، وظهور مشكلات تتعلق بالتعلم المدرسى والأكاديمى، والانسحاب، والعناد والتمرد، وزيادة الترقب، والسلوك القهرى، والسلوك الناضج الخداع (ليس عن نضج حقيقى).
هذا مع ملاحظة أن الجو النفسى الذى ينشأ فيه الطفل والبيئة التى غالبًا ما تنطوى على أشكال من الرفض والإهمال يكون وقعها على الطفل أقوى بكثير من مجرد وقع الأذى البدنى أو أى شكل من أشكال الإساءة.

وفيما يلى الآثار السيئة لإساءة معاملة الأطفال :

الآثار العاطفية :

- تقدير ذات منخفض، واكتئاب وقلق، واضطراب الأكل
- صعوبات فى العلاقات الاجتماعية، واضطرابات فى الشخصية.

الآثار الجسدية :

الأذى، والموت، ومشاكل صحية مزمنة، وصعوبات معرفية.

آثار العنف ـــ

الآثار السلوكية :

- مشاكل فى العمل أو المدرسة، والحمل فى فترة المراهقة، ومحاولات انتحارية
- الجريمة أو سلوك مضاد للمجتمع، وسلوك عدوانى

لذا يجب الاهتمام بالطفل وإشباع حاجاته الأساسية والنفسية والاجتماعية، وخاصة الترف العاطفى والأمن النفسى والاجتماعى حتى ينشأ طفلاً سويًا لا يعانى من الاضطرابات السلوكية والنفسية.

خصائص الآباء المسيئين لأبنائهم :

- تعرض الآباء فى طفولتهم لخبرات من الحرمان أو القسوة والإساءة الوالدية.
- يحمل الآباء أفكار ومعتقدات خاطئة حول دورهم كآباء، وحول كيفية تربيتهم لأطفالهم.
- يعانى هؤلاء الآباء من ضعف فى البناء النفسى مما يتيح للنزعات العدوانية أن تعبر عن نفسها بلا ضوابط تذكر.
- أن العوامل الاجتماعية والاقتصادية تضيف عبئًا من الضغوط النفسية على مثل هؤلاء الآباء، وإن كانت هذه الضغوط النفسية فى حد ذاتها ليست كافية لوقوع سوء المعاملة والإساءة للأطفال، وهناك من الأدلة العلمية ما يشير إلى أن الآباء المسيئين لأطفالهم كانوا فى طفولتهم ضحايا للحرمان والإساءة الوالدية.

منع أو إيقاف إساءة معاملة الأطفال

يمثل الطفل العنصر الهام الذى يقع عليه عبء التنمية؛ ولذلك فمن الضروري أن يلقى الطفل ما هو جدير به من عناية مادية ومالية ومعنوية لسد احتياجاته فى فترة النمو؛ لكى يشب صحيحًا، ولكى يتحقق إمتاع الطفل وصفائه النفسى لابد من إشباع بعض الحاجات النفسية له، مثل الحاجة إلى الأمن، والحب، والقبول الاجتماعى، واللعب، والحركة، والأمن النفسى والاجتماعى. والطريقة الوحيدة لإيقاف هذه السلسلة هى العمل مع الآباء والآباء البديلين، والقائمين على رعاية الطفل ممن يبثون أو يحتاجون لمساعدة، ويستطيع أخصائيو الصحة العقلية وآخرون منع إساءة معاملة الطفل عن طريق تأسيس برامج تعليمية لتدريب القائمين على الرعاية الوالدية الجيدة وامتلاك المهارات، وزيادة وعى الأفراد ببدائل سلوكيات الإساءة؛ وبذلك يمكنهم البحث عن المساعدة للتقليل من النزعة نحو إساءة معاملة أطفالهم، وتثقيف العامة حول إساءة معاملة الطفل ليتمكنوا من الإبلاغ حول الإساءة بحيث يمكن التدخل بشكل مبكر، وإقامة علاقة ثقة مع الطفل، بحيث يتمكن من الإخبار عن سوء المعاملة بشكل مريح.

والتوصيات فى هذا الشأن كالتالى :

١- توعية الأسرة والمدرسة والمجتمع ببنود اتفاقية حقوق الطفل من خلال مجالس الآباء والأمهات ووسائل الإعلام المختلفة.

٢- ضرورة مكافحة العنف وكافة أشكال الإساءة والمعاملة للأطفال من خلال أجهزة الإعلام المختلفة وتطوير أساليب التدريس، وتضمين المناهج الدراسية الحقوق التى ينبغى أن يتمتع بها الأطفال وضرورة احترامها.

٣- تفعيل دور المؤسسات الدينية التثقيفى، والتوعية فى مجال مكافحة العنف والإساءة ضد الأطفال.

٤- أن تقوم المنظمات والجمعيات النسائية بالدور الكبير فى توعية وتثقيف الأمهات بمعنى الإساءة للطفل وأشكالها، وأضرارها وتأثيرها على الصحة النفسية.

٥- ضرورة قيام المؤسسات الإعلامية بفحص الأفلام والبرامج الخاصة بالأطفال، ومراعاة خلوها من العنف والإساءة للأطفال.

٦- الاهتمام بتعيين المرشدين التربويين فى المدارس الابتدائية للتدخل فى معالجة مشكلات الأطفال المساء إليهم.

وأخيرًا لكى نحقق للطفل - أى رجل المستقبل - حياة المستقرة المثمرة البعيدة عن الصراعات النفسية. ينبغى أن نوفر له الحب والعطف الذى يشبع حاجاته إلى الشعور بالأمن والطمأنينة، ويجنبه الخوف والقلق والشعور بالحرمان والتعاسة إذا لم تشبع هذه الحاجات.

وبذلك فإن الأطفال الذين يتوفر لهم هذا المناخ الصحى فى الأسرة سوف يساعدهم هذا على أن يشبوا رجالاً ونساءً سعداء فى علاقاتهم الأسرية والاجتماعية، أكفاء فى عملهم، أصحاء نفسيًا وجسميًا، ثم يصبحون قادرين لمقابلة عالم الواقع بمسئولياته وأفراحه وأتراحه ومتاعبه دون التعرض للخوف والقلق وضعف الثقة بالنفس، ودون التوتر النفسى والتعاسة التى تؤثر تأثيرًا سيئًا على صحتهم النفسية.